خطبة صلاة الجمعة 4/ 4/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(خاتمة سلسلة هموم الشباب)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣]، قال ابن كثير: هم الشباب.

أخرج الحاكم والبيهقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**».

أيها الإخوة:

نحن في الخطبة الخاتمة الثلاثين من سلسلة (هموم الشباب).

تحدثت الخطب: لماذا هذه السلسلة، وكيف أترك المعصية، كيف أرضي أبوي، كيف أجد عملا مناسبا، كيف لي بالزواج، ماذا أقرأ لأفهم ديني، وكيف أجمع بين الدنيا والآخرة، وكيف أجمع بين الهزل والجِد، وكيف يلين قلبي، وكيف أخدُم بلدي، وكيف أسيطر على الغضب، وكيف أنجو من الفتن، وكيف أكون محبوبا، وكيف أنظم وقتي، وكيف أكتشف مواهبي وأنميها، وكيف أصير داعية إلى الإسلام، وكيف أختار تخصصي الجامعي، وكيف أختار صاحبي، لم لا يستجيب الله دعائي، ماذا أفعل

ليتعافى بلدي وينهض، كيف أضبط شهواتي، كيف أكتسب الأخلاق الحسنة، وعلقت بي عادة سيئة فكيف أتخلص منها؟ وكيف أصير عالي الهمة، وكيف أعتصم من الشيطان وحيله، وكيف أساهم في تحرير فلسطين، وكيف أتعامل مع أجهزة الاتصال ومواقع التواصل، وكيف أخدم ديني، كيف أنال حسن الخاتمة؟

ونصل اليوم إلى الخطبة الأخيرة: الخاتمة.

أيها الإخوة:

كتب فيلسوف الإسلام الشاعر الهندي محمد إقبال يقول: (إني أتمنى للإسلام جيلاً جديداً من شباب القرآن، شبابه طاهر نقي، وضربه موجع قوي، إذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشَّرى، وإن كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل، هذا مع الأعداء وذاك مع الأولياء، إذا تكلم كان رقيقاً رفيقاً، وإذا جدَّ في الطلب كان شديداً حفياً.

إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً في النعومة، وإن كان بين الأعداء كان حديداً في الصلابة، يجمع بين جلالِ إيمانِ الصِّدِّيق، وقوةِ علي، وزهدِ أبي ذر، وصِدقِ سلمان.

يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء، يُعْرَفُ في محيطه بحكمته وفراسته، وبأذان السَّحر؛ يقتنص النجوم، ويصطاد الأسود، ويباري الملائكة، يرفع قيمتَه ويزيدُ في سعره حتى لا يستطيع أن يشتريه غيرُ ربه).

وقلت في واحدة من خطب هذه السلسلة: بلدنا اليوم – بعد أن أصابه ما أصابه – أحوج ما يكون إلى الشباب، ذلك لما يتمتع به الشباب من قوة وطاقة وحيوية ونضارة وإيمان.

فالمزارع والحقول الخضراء لا يعود ازدهارها إلا بسعي الشباب، وعجلة الصناعة لا ترجع دورتها إلا بقوة الشباب، والثروات الباطنة لا يستخرجها من أعماق مناجمها إلا جَلَد الشباب، والأبنية السامقة والطرقات الطويلة لا يرفع هذه ولا يمهد هذه إلا إرادة الشباب، وإعمار ما هُدِمَ ومداواة ما كُلِمَ لا يكون من دون جهود الشباب، والذَّود عن الأوطان والحفاظ على أمنها واستقلالها مسؤولية يقع جلُّها على الشباب.

وساحات الجوامع ومدرجات الجامعات مساحاتٌ مَن يرتادها إن لم يكن الشباب؟

وحلقات الذكر ومجالس العلم رياض من رياض الجنة أغلب عمَّارِها الشباب.

وعبر التاريخ قامت دعوات الإصلاح على أيدي الشباب، بل إن حَمَلَة الدعوات وحُمَاةَ الرسالات كانوا شباباً.

روى ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أدى العلمَ عالمٌ إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء٦٠].

فالآمال معقودة عليكم أيها الشباب، والعيون ناظرةٌ إليكم لتخدُموا دينكم ووطنكم، ولهذا كنتم جديرين بأن يخصص لكم منبر الجمعة سلسلة خطب.

وأحب في خاتمة هذه السلسلة أن أقدم لنفسي أولاً ولشبابنا ثانياً ولمن يسمع هذه الخطب أو يقرؤها ثلاثَ نصائحَ رأيت نفعها بعيني، ولمست خيرها بيدي، وتذوقت حلاوة معانيها بنفسي، وتنسمت عبقها بروحي وسمعت صوتها بقلبي.

النصيحة الأولى: اصدقوا مع الله تعالى:

فبالصدق مع الله يكون الله معكم، ومن كان الله معه كفاه وهداه ووقاه، وآواه ونصره وتولاه، ورفعه وأعانه وأعطاه، قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]، فكونوا أنتم هؤلاء الرجال.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«إن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا»** [البخاري]، فكونوا أنتم الصدّيقين.

روى البيهقي والنسائي عن شداد بن الهاد، أن رجلاً جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه فقال: أهاجر معك؟ فأوصى به النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه وقسم له، فأعطى أصحابَه ما قُسِمَ له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى هاهنا، وأشار إلى حلقه بسهم، فأموت فأدخل الجنة. فقال: «إن تصدق الله يصدقك»، ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأُتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحمَل وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هو هو؟! قالوا: نعم، قال: **«صدق الله فصدقه»**، وكفنه النبي صلى الله عليه وسلم في جبة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قدمه فصلى عليه.

فمن صدق مع الله في طلب خدمة دينه أعطاه، ومن صدق في طلب الآخرة أعطاه، ومن صدق في طلب تحرير ما اغتصب من أراضي المسلمين أعطاه، ومن صدق في طلب سواه أعطاه: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20].

ويكفي في فضيلة الصدق – أيها الشباب – أن الله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 41] ، وقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 54]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 56].

قال أبو عبد الله الرملي رأيت منصور الدينوري في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل، فقلت له: ما أحسن ما توجه العبد به إلى الله؟ قال: الصدق، وأقبح ما توجه به الكذب.

وقال الثوري في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: 60]، قال: هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين.

وقال محمد بن سعيد المروزي: إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآةٍ بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة.

فكونوا أيها الشباب صادقين مع الله تعالى في التزامكم بشرعه، وفي إقبالكم عليه، وفي خدمتكم لعباده تقربا إليه، وفي نواياكم وإراداتكم، وفي أقوالكم وأعمالكم؛ فيعطيكم ما لا يخطر لكم على بال من خيري الدنيا والآخرة، ووالله لقد جربنا هذا فوجدناه كما قيل لنا، ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 24].

النصيحة الثانية: جِدوا في السعي لدنياكم وأخراكم:

فللناس همٌّ ولكم همّان؛ همُّ الدنيا والآخرة، اجتهدوا في العمل وثابروا على العلم، وحافظوا على أوراد الليل والنهار، واصلوا كَلال الليل بكَلال النهار، فإنّ جَمال الشباب في قوته، وإنّ رونق الشباب في حيويته، وقد حدثتكم يوماً عن أخ حضر بيننا كان يدرس في كليتين معاً، ويعمل في وظيفة عامة، ويساعدنا في معهد القرآن الكريم، ومع هذا كله هو ضرير لا يبصر! وأحدثكم عن أخ يحضر معنا

يدرس في كليتين معاً إحداهما في الجامعة الافتراضية والثانية في التعليم العام، ويعمل في شركة خاصة، ويساعدنا في معهد القرآن، وهو متزوج وله طفلان!، وثالثٍ يطوي الأرض طَيّا، يضرب بتسويق منتجاته وتأمين مواده الأولية من بلد إلى بلد، يسعى لكسب المال الحلال ينفقه على نفسه وعلى أبناء بلده، ويسعى ليطور صناعة يخدم بها البلاد والعباد تقرباً إلى الله تعالى، ولو شاء أن يحيا مرتاحا في أي بلد آخر لفعل، ولكن همته ودأبه وجِده واجتهاده يأبون عليه ذلك.

هكذا يسبك الإسلام الرجال كما تسبك النار الحديد، وهكذا يكون الشباب.

شبابٌ ذَلّلُوا سُبلَ المعالي ... وما عرفوا سوى الإسلامِ دينا

تعهّدَهم فأنبتهم نباتاً ... كريماً طابَ في الدنيا غصونا

إذا شهدوا الوغى كانوا حُماةً ... يدكُّون المعاقلَ والحصونا

وإنْ جنَّ المساءُ فلا تراهم ... منَ الإشفاقِ إلا ساجدينا

شبابٌ لم تحطّمْه الليالي ... ولم يُسْلِمْ إلى الخصمِ العرينا

وما عرفوا الأغاني مائعاتٍ ... ولكنَّ العلا صِيغتْ لحونا

ولم يتشدّقوا بقشورِ علمٍ ... ولم يتقلبوا في الملحدينا

كذلك أخرج الإسلامُ قومي ... شباباً مخلصاً حُراً أمينا

وعلّمه الكرامةَ كيف تُبْنَى ... فيأبى أنْ يذلّ وأن يهونا

النصيحة الثالثة الأخيرة، وفيها مسك الختام: أكثروا من ذكر الله والضراعة إليه:

فإن من أكثر ذكر الله حفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضاً من كل شيء، ومن أكثر الضراعة والسؤال من حضرة الله أعطاه الله سؤله وأناله مراده.

بذكر الله يزول الوقر عن الأسماع، والبَكَم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار، وبالضراعة على بابه تنفتح أمامك أبواب العلم النافع والعمل الصالح.

ذِكر الله بابُ الله الأعظم المفتوحُ بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته، والضراعة والسؤال من الله مفتاح السعادة الكبرى، فمن ألهمه الله الدعاء فقد أراد أن يعطيه.

وبعد أيها الشاب:

بهذه الثلاثة تُختَم سلسلةُ همومِ الشباب، اصدقوا مع الله تعالى، وجِدوا في السعي لدنياكم وأخراكم، وأكثروا من ذكر الله والضراعة إليه، أخرج الإمام الترمذي بإسناده قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وماذا عمل فيما علم»**.

اللهم تول شبابنا بولايتك، وأعتن بهم بعنايتم، وأيدهم بتأييدك، وأمدهم بإمدادك، وأعطهم من خير ما تعطي عبادك الصالحين، واجعلنا وإياهم خَدماً لدينك وقرآنك وسنة نبيك، واجعلهم قرة عين لأهليهم وأوطانهم والعالم أجمعين.

والحمد لله رب العالمين